أبعاد الزمن فى نونية ابن زيدون

[1]

لا شك أن نونية ابن زيدون(*) من أشهر قصائد ابن زيدون، وهى فى الوقت نفسه من عيون الشعر العربى القديم، ومن أشهر قصائد الحب على الإطلاق. وقد كثرت الدراسات حولها لإظهار جمالياتها المتعدّدة.

وفى هذه الدراسة أدرس جانبًا واحدًا فيها، لعله – فى ظنّى – لم يدرس فيها من قبل، ألا وهو إيقاع الزمن فيها.

وقد لاحظت أن عنصر الزمن أساسى فى تكوين هذه القصيدة الرائعة، ويبدو صراع الشاعر واضحًا فيها مع ذلك الزمن الذى انقلب عليه فى حاضره، ولم يُبْق له سوى ذكريات الماضى السعيد يتأملها ويعيش على ذكراها، راجيًا أن يأتى المستقبل موصولاً بالماضى المبهج، وأن تنطوى صفحة الحاضر الحزين بلا رجعة.

ونرى ابن زيدون فى هذه القصيدة يزاوج فى كل بيت – تقريبًا – من أبيات هذه القصيدة بين الماضى السعيد فى علاقته بمحبوبته ولادة بنت المستكفى، وبين الحاضر البائس فى هجرانها له، وتجاهلها إياه، وخلال تلك المزاوجة التى تبرز المفارقة يبدو عند الشاعر تطلعات للمستقبل – تلوح فى بعض الأبيات – بعودة الصفاء لعلاقته بولادة مما يعنى عودة الحياة له.

وفى رأيى أن هذه القصيدة تشبه السيمفونية فى انسجام أنغامها، وتتابع حركاتها التى يلوح فيها الزمن حاضرًا معبرًا بقوة عن أثره فى تبدل العلاقة بين الشاعر ومحبوبته.

(*) ابن زيدون (394-463هـ/ 1004-1071م) هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون، المخزومى الأندلسى، أبو الوليد: وزير كاتب شاعر، من أهل قرطبة، انقطع إلى ابن جهور (من ملوك الطوائف بالأندلس) فكان السفير بينه وبين الأندلس، فأعجبوا به. واتهمه ابن جهور بالميل إلى المعتضد بن عباد، فحبسه، فاستعطفه ابن زيدون برسائل عجيبة فلم يعطف، فهرب واتصل بالمعتضد صاحب إشبيلية فولاه وزارته، وفوض إليه أمر مملكته فأقام مبجلاً مقربًا إلى أن توفى بإشبيلية فى أيام المعتمد على الله ابن المعتضد. وهو صاحب أضحى التنائى بديلاً من تدانينا من القصائد المعروفة. وأما طبقته فى النثر فرفيعة أيضًا، وهو صاحب "رسالة ابن زيدون – ط" التهكمية، بعث بها على لسان ولادة إلى ابن عبدوس وكان يزاحمه على ولادة بنت المستكفى. وله رسالة وجهها إلى ابن جهور - طبعت مع سيرة حياته فى كوبنهاجن، وله ديوان شعر – ط، ولعلى عبد العظيم ابن زيدون، عصره وحياته وأدبه – ط. ويرى المستشرق كورن سبب حبسه اتهامه بمؤامرة لإرجاع الأمويين.
انظر فى هذا: الأعلام، 158/1.

ويمكن أن نقسم هذه القصيدة، إلى سبعة مقاطع – أو حركات – يوجد بينها اتصال وتفاعل قوى، وكل مقطع منها ينسجم مع ما قبلها ويهيئ للمقطع الذى يليه، وهى كالآتى:

١ المزج بين الماضى والحاضر.

٢ تصوير الحاضر وحال الشاعر فيه.

٣ تذكره الماضى الجميل مع ولادة والتحسّر لفقده.

٤ آماله فى المستقبل المرجوّ.

٥ استحضاره صورة محبوبته يتعزّى بها عن فقده إياها.

٦ المزج مرة أخرى بين الماضى والحاضر.

٧ تصوير حال الشاعر فى الحاضر وتأكيده على أنه لا يسلو محبوبته أبدًا.

٨ آمال الشاعر فى المستقبل فى عودة الوصال بينه وبين محبوبته.

والملاحظ أن مقاطع القصيدة – كما تصوّرها هذه العناوين – يتراءى فيها الزمان، ويلونها ما بين استحضار الماضى أو المستقبل أو المضارع، أو كلها معًا، من خلال إظهار الصراع بين الماضى والحاضر وترقب المستقبل المرجو الذى يخلصه من ذلك الصراع المؤلم بين الماضى السعيد والحاضر التعيس.

وها نحن نصوّر هذه المقاطع المتتالية لهذه القصيدة، ونظهر أبعاد الزمن فيها، وخلال ذلك نظهر مدى الترابط العضوى بين أجزائها.

[2]

المزج بين الماضى والحاضر

فى المقطع الأول من هذه القصيدة، – الذى عنوناه بـ"المزج بين الماضى والحاضر" – يبدو الصراع شديدًا بين الشاعر والزمن، وتلوح فيه مفردات الزمن معبّرة عن حضوره القوى فيه، مثل "الدهر، الزمان، صبح، اليوم"، وتتكرر فيه كلمة الدهر مما يوحى بسيطرته على الموقف، وأن صراع الشاعر الحقيقى فى هذه القصيدة هو معه، يقول الشاعر:

أضحَى التنائى بَديلاً مِنْ تَدَانِينا ... وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيانا تجافينا (1)

ألاَّ وَقَدْ حَانَ صُبْحُ الْبَيْنِ صَبَّحَنا ... حَيْنٌ فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِينَا (2)

مَنْ مُبْلِغُ المُلْبِسِينا بِانْتِزَاحِهِمِ ... حُزْنًا مَعَ الدَّهْرِ لا يَبْلَى وَيُبْلِينَا (3)

أنَّ الزَّمَانَ الذِى مَا زَالَ يُضْحِكُنَا ... أنْسًا بِقُرْبِهِمُ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا

غِيظَ العِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الهَوَى فَدَعَوْا ... بِأنْ نَغَصَّ فقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا (4)

فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأنْفسِنَا ... وَانْبَتَّ مَا كَانَ مَوْصُولاً بِأيْدِينَا (5)

وَقَدْ نَكُون وَمَا يُخْشى تَفَرُّقُنَا ... فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجى تَلاَقِينَا (6)

ومما يدل على حضور الزمن القوى فى هذه الأبيات إلى جانب ما ذكرناه من تعدّد ذكر مفردات الزمن فيها خاصة مفردة الدهر – أننا نرى الشاعر يُشخِّص الدهر فيها، وكأنه هو الذى قضى على أيام الوصال بين الشاعر ومحبوبته، يقول الشاعر فى ذلك:

غِيظَ العِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الهَوَى فَدَعَوْا ... بِأنْ نَغَصَّ فقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا

فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأنْفسِنَا ... وَانْبَتَّ مَا كَانَ مَوْصُولاً بِأيْدِينَا

إذن فقد كان انهيار علاقة الشاعر بمحبوبته ليس فقط بوشايات الأعداء، ولكن أيضًا بمباركة الدهر لها، ولولا مباركته لقطع هذه العلاقة ما تم الفراق بينهما.

وقد نتج عن تدخل الدهر فى قطع هذه العلاقة أن تبدَّلت الحال مع الشاعر؛ فغدت أيامه الحاضرة كئيبة تعيسة مقارنة بأيامه السابقة فى الماضى التى كان فيها وصال دائم سعيد بين الشاعر ومحبوبته:

---

(1) التنائى: البعد، ناب: حلّ.

(2) البين: الفراق، الحين: الهلاك، ناعينا: الناعى المبلغ بالموت والمصائب.

(3) الملبسين: الذين ألبسونا ثوب الحزن على الدوام بسبب بعدهم عنا وفرط شوقنا إليهم، بانتزاحهم: ببعدهم.

(4) غيظ: اغتاظ، العدا: الأعداء، غص بالماء: شرق به أو وقف فى حلقه.

(5) معقودًا: مربوطًا، انبتّ: انقطع.

(6) وقد رجعنا فى تخريج هذه القصيدة – بشكل أساسى – إلى ديوان ابن زيدون "رسائله، أخباره، شعر الملكين". شرح وضبط وتصنيف: كامل كيلانى، وعبد الرحمن خليفة. طبع بمطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر، ط 1، 1351هـ/ 1932م، ص4 -8، وتمت الاستعانة أيضًا بالرجوع لديوان ابن زيدون. دراسة وتهذيب: عبد الله سنده. بيروت، دار المعرفة، ط 1، 1426هـ/ 2005م،ص11 – 16.

وقد نكُون وما يُخْشَى تَفَرُّقُنا فاليوْمَ نحنُ وما يُرْجَى تَلاقينا

إن هذا البيت الأخير فى ذلك المقطع الأول من هذه القصيدة يوضح مدى تدهور العلاقة بين الشاعر ومحبوبته، فقد صار الأمل فى تلاقى الشاعر بمحبوبته ضعيفًا لا يرجى تحققه، وتبدو كلمة اليوم – وهى إحدى مفردات الزمن – معبّرة عن حال الشاعر فى الحاضر من يأسه فى مواصلة علاقته بمحبوبته ولادة، وكما كان الدهر مشاركًا فى قطع هذه العلاقة فإن اليوم يصوِّر تدهورها وضعف الأمل فى وصالها من جديد.

ومن الواضح فى هذا المقطع أن كل بيت فيه يعطى مفارقة بين تصوير الماضى السعيد فى علاقة ابن زيدون بولادة، وتصوير الحاضر الحزين فى انقطاع هذه العلاقة وأثر انقطاعها المؤلم على نفسية الشاعر.

وكأن كل بيت فى هذا المقطع هو صرخة من الشاعر للزمن؛ لم فعلت هذا؟!، ولم شاركت فيه؟!، ولم أظهرت لنا الصفاء حينًا ثم انقلبت علينا؟!:

مَنْ مُبْلِغُ المُلْبِسينا بانتزاحِهِم حُزْنًا مع الدهرِ لا يَبْلى ويُبْلينا

أنَّ الزمانَ الذى ما زال يُضْحِكُنا أنْسًا بُقْربهمُ قد عاد يُبْكينا

[3]

تصوير الحاضر وحال الشاعر فيه

وبعد أن صوّر ابن زيدون صراعه مع الزمن، وكيف كان حاله فى الماضى ثم التطور الذى آلمه فى الحاضر، أراد أن يشعرنا بثقل هذا الحاضر عليه، فأفرده فى المقطع التالى بالحديث عنه.

كُنَّا نَرَى الْيَأسَ تُسْلِينَا عَوَارِضُهُ وَقَدْ يَئِسْنَا فَمَا لِلْيَأسِ يُغْرِينَا (١)

بِنْتُمْ وَبِنَّا فَمَا ابْتَلّتْ جَوَانحُنَا شَوْقًا إلَيْكمْ وَلاَ جَفَّتْ مَآقِينَا (٢)

نَكادُ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمائرُنَا يَقْضِى عَلَيْنا الأسى لَوْلاَ تَأسِّينَا (٣)

---

(١) المعنى: كنا نظن أن اليأس يسلى، فما بال يأسنا يزيدنا ولوعًا بكم.

(٢) بنتم: بعدتم، بنا: ابتعدنا، فما ابتلت جوانحنا: فما نعمنا ونسينا عهدكم، ودموعنا لم تجف من البكاء حزنًا على فائت الأيام، مآقى: جمع مأق، والمأق: مجرى الدمع من العين.

(٣) الأسى: الحزن، التأسى: التعزّى.

لقد بدأ اليأس يتسرّب للشاعر حول إمكانية عودة الوصال بينه وبين محبوبته؛ ومع ذلك فهذا اليأس يغريه بالتعلق بها، بدلاً من أن يصرفه عن ودّها.

وها هو ذا فى حاضره لا يراها ومع ذلك لا يتوقف شوقه نحوها، ولا تتوقف عيناه عن البكاء عليها، ويكاد حين مناجاته إياها – على البعد – أن يقضى عليه الحزن، لقطعها علاقتها به.

وفى هذا المقطع الذى يصور الشاعر فيه حاضره لا نرى إلا تعبيره عن تجرعه الآلام، وتمكن الحزن منه الذى يكاد يقضى عليه لولا تمسُّكه ببعض الأمل.

ومن هنا فهذا المقطع الذى يصوِّر الحاضر يلوّنه الشاعر بالمرارة التى يشعر بها، وتبدو الأفعال المضارعة معبِّرة عن استمرار إحساس الشاعر بهذه المرارة فى حاضره مثل "نرى، تسلينا، يئسنا، يغرينا، نكاد، تناجيكم، يقضى، تأسينا".

[4]

تذكُّره الماضى الجميل مع ولاَّدة والتحسُّر لفقده

وكان لابد للشاعر أن يتمسك بشىء يخفف عنه الإحساس بهذه المرارة الشديدة التى تكاد تقضى عليه، ومن هنا فلم يكن أمامه سوى شريط الذكريات الجميل فى الماضى، وقد استعاد من خلاله أيام الوصال بينه وبين محبوبته. إن هذه الذكريات كالبلسم الذى يخفف من آلامه فى الحاضر، وإن كان الحاضر فى هذا المقطع يلوح أحيانًا ليذكِّر الشاعر بأن هذه الذكريات الجميلة فى الماضى قد مرت ومضت، ولم يبق للشاعر سوى أن يفيق لحاضره المؤلم، يقول الشاعر:

حَالَتْ لِفَقْدِكُمُ أيَّامُنا فَغَدَتْ سُودًا وَكانَتْ بِكُمْ بِيضًا لَيَالِينَا (٦)

إذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلْقٌ منْ تَأَلُّفِنَا وَمَرْبَعُ اللّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا

وَإذْ هَصَرْنَا فُنُونَ الْوَصْلِ دَانِيَةً قِطَافُها فَجَنَيْنَا مِنْهُ مَا شِينَا (٧)

---

(٦) حالت: تحولت، غدت: صارت.

(٧) هصرنا: جذبنا، فنون: ألوان، دانية قطوفها: قريبة المنال، شينا: شئنا. والمعنى: فكأن الشاعر استعار للوصل أفنانًا يهصرها أى يميلها إليه عند اقتطاف زهرها واجتناء ثمرها.

لِيُسْقَ عَهْدُكُمُ عَهْدُ السُّرُورِ فَمَا كُنْتُمْ لأرْوَاحِنَا إلاَّ رَيَاحينَا (١)

والملاحظ أن الشاعر لم يسترسل فى حديثه عن الماضى السعيد فى علاقته بولادة، واكتفى بهذه الأبيات التى تشير لجمال هذا الماضى وحسنه وكيف أن الشاعر تنعّم بالسعادة فيه فى وصاله مع ولادة.

لقد كان العيش جميلاً والحياة صافية، وقطف الشاعر مع محبوبته كل ثمار المتع فى ذلك الماضى السعيد، وكان عهده معها هو عهد السرور فى الماضى.

هذا هو كل ما قاله الشاعر حين صور ماضيه السعيد، كلام عام، لا تفصيل فيه. ولم يُفَصِّل الشاعر هذا النعيم الذى كان له مع ولادة فى الماضى ولم يسترسل فى الحديث عنه؛ لأن شعوره بالحزن على مدار القصيدة كلها يسيطر عليه، ولو أنه استرسل فى وصف هذا النعيم الذى كان فى الماضى لخالف شعوره بالحزن الذى يسيطر عليه على مدار القصيدة كلها، ويلونها بجوّها الحزين،ويعمل على ترابطها العضوى ووحدتها.

[5]

آماله فى المستقبل المرجو

ويبدو أن حديث الشاعر فى المقطع السابق عن الماضى الجميل، وذكرياته الحلوة فيه قد أغراه بأن ينظر للمستقبل، ويعلّق آماله به فى أن يعود الوصال بينه وبين محبوبته ولأَدة مرة أخرى، يقول ابن زيدون:

يا سَارِىَ الْبَرْقِ غَادِ الْقَصْرَ وَاسْقِ بِهِ مَنْ كانَ صِرْفَ الْهَوَى وَٱلْوُدِّ يَسْقِينَا (٢)

وَاسْأَلْ هُنَالِكَ هَلْ عَنَّى تَذَكُّرُنَا إلْفًا تَذَكَّرُهُ أمْسى يُعَنّينا (٣)

وَيَا نسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا مَنْ لَوْ عَلَى الْقُرْبِ حَيَّا كانَ يُحْيِينَا

فَهَلْ أرَى الدَّهْرَ يَقْضينَا مُساعَفَةً مِنْهُ وَإنْ لَمْ يَكُنْ غِبًّا تَقَاضِينَا (٤)

---

(١) ليسق: أى سقاها الله من غيثه، وهو دعاء بالرحمة، والمعنى: سقيًا لعهدكم عهد السرور.
(٢) غاد: باكره بالغمام أول النهار.
(٣) المعنى: هل شغل من نألفه بذكرنا كما شغلنا تذكره.
(٤) الغبّ فى الزيارة أن تكون كل أسبوع والمقصود هنا القلة. والمعنى: إننا لم نتقاض الوصال من الدهر غبًّا، ولكننا تقاضيناه بإلحاح، فهل ترى الدهر – بعد هذا – يسعفنا.

إن الشاعر فى هذا المقطع يُشرك بعض عناصر الطبيعة معه فى مشكلته فى قطع الوصل بينه وبين ولادة، ويأمل أن يكون لهذه العناصر دور فى إعادة هذه العلاقة كما كانت عليه من صفاء فى الماضى. فها هو يطلب من البرق ونسيم الصبا أن يبلغا ولادة ويبلّغاها تحيته، عساها أن ترد عليه تلك التحية؛ فتعود له حياته السعيدة.

وعناصر الطبيعة التى تحدث عنها الشاعر فى هذا المقطع بدت مُشخَّصة، كأنها أشخاص يستعين بهم الشاعر فى ترضّى محبوبته، ولعله استعان بهذه العناصر من الطبيعة بعد أن يئس من مساعدة الناس له فى عودة الوصال بينه وبين محبوبته ولادة، ولم لا وقد كان بعض الناس هم الذين قاموا بالوشايات بينه وبين ولادة – كابن عبدوس – فصدَّقتهم، وقطعت علاقتها به، ولم يبق له إذن إلا أن يستحضر عناصر الطبيعة لعلها تقنعها ببراءته، وصفاء حبه لها.

ويدرك ابن زيدون أن عناصر الطبيعة هذه مهما كان الدور الإيجابى الذى تلعبه لإراحة نفسه، ولبث الأمل فيها، فإن الطرف الأهم الذى يجب استرضاؤه عسى الوصال أن يعود بينه وبين ولادة – هو الدهر، ولهذا يقول:

فهل أرى الدَّهْرَ يَقْضينا مُسَاعَفَةً مِنْهُ وإن لم يكُنْ غِبًّا تَقَاضِينا

إنه يلحّ على الدهر أن يعيد الوصال من جديد بينه وبين ولادة حتى وإن كان وصالاً على فترات بعيدة، المهم أن يعود ذلك الوصال.

[6]

استحضاره صورة محبوبته يتعزّى بها عن فقده إياها

وتعلق الشاعر بالأمل فى المستقبل -كما رأينا فى المقطع السابق- يجعله يستحضر صورة ولادة بكل ما احتوته من فتنة وجمال، فكأنها حاضرة معه بهذا الوصف الذى يغريه بمواصلة حبها، ويغريه بالتعلق بالأمل فى أن يعود الوصال بينهما من جديد، يقول الشاعر مصوِّرًا بريشة أحاسيسه محبوبته:

رَبِيبُ مُلْكٍ كَأن الله أنْشَأهُ مِسْكًا وَقَدَّرَ إنْشَاءَ الْوَرَى طينَا (٦)

أوْ صَاغَهُ وَرِقًا مَحْضًا وَتَوَّجَهُ مِنْ نَاصِعِ التِّبْرِ إبْدَاعًا وَتَحْسِينا (٤)

إذَا تأوَّدَ آدَتْهُ رَفاهِيَةً ثُومُ الْعُقُودِ وَأَدْمَتْهُ الْبُرَى لِينَا (٤)

كانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظِئْرًا فى أكِلَّتِهِ بلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إلاَّ أَحَايِينَا (٤)

كَأَنَّمَا أَثْبَتَتْ فى صَحْنِ وَجْنَتِهِ زُهْرُ الكَوَاكِب تَعْوِيذًا وَتَزْيِينا (٤)

ولعلَّ الشاعر بتصويره ولادة بهذا الحسن الفاتن المثالى – إضافة لما قلته من قبل – يتعزّى بذلك عن فقده إياها، أو هو يرسم لها بالكلمات لوحة تخلدها فى خياله، فيراها فى كل حين وإن غابت بجسدها عن عينيه، و هو يقاوم الدهر الذى فرق بينهما، وأبعدها عنه، فها هو يستحضر صورتها فى شعره بكل ما تحويه من فتنة وسحر، وهذه الصورة التى ستبقى فى عينيه دائمًا، وستبقى إلى قيام الساعة فى أذهان كل من يقرأ أو يسمع هذه الأبيات. وكأن الشاعر يقول للدهر يمكنك أن تبعدها بجسمها عنى ولكننى أستحضر صورتها بخيالى، ولا تستطيع أن تمنعنى من ذلك، وفى هذا بعض العزاء لى، كما أن هذه الصورة التى أرسمها بخيالى وكلماتى لها ستبقى خالدة مدى الحياة، وفى هذا مقاومة للزمن، بل لعل الشاعر بهذا المقطع يتحدى الزمن ويرى أنه يمكنه أن يستعلى عليه أحيانًا.

وأوصاف الشاعر لمحبوبته – فى هذا المقطع – تبدو مثالية – وشأنه فى ذلك شأن أكثر الشعراء العرب القدماء فى وصفهم محبوباتهم –

فلا يعطينا ابن زيدون أوصافًا محدَّدة لمحبوبته تُميّزها عن غيرها من النساء، بل إنه يتحدث عنها على أنها نموذج للجمال والسحر والفتنة؛

---

(٦) المعنى: ليس هذا المحبوب مخلوقًا من طين أو تراب كسائر البشر كلاً، وإنما هو طينه من المسك.

(٤) الورق: الفضة، التبر: الذهب، والمعنى: يريد أن الله أبدعه ناصع البياض وتوّجه بشعر ذهبى.

(٤) تأوّد: تثنى، آدته: أثقلته، توم العقود: عقود الفضة كالدر، أدمته البرى: تسببت الخلاخيل فى خروج الدم منه لشدة لينها، والمعنى: يقول إذا تثنى آدته أى أثقلت وشق حملها عليه ،توم، أى لآلئ العقود وجرحته (البرى) أى الخلاخيل، وذلك لرفاهته.

(٤) ظئرًا: مرضعة، أكلة: جمع كلة، وهى ستر رقيق يقى من البعوض.

(٤) صحن وجنته: صفحة خده. والمعنى: أن جماله استعار زهر الكواكب لتكون زينة له، وتعويذة من عيون حاسديه.

ولعل هذا يعود لكونه – وغيره من الشعراء العرب القدماء – يرى فى محبوبته مثال الجمال والروعة، فلا يسعه إلا أن يصفها وصفًا مثاليًّا.

فهى مخلوقة من مسك وسائر البشر مخلوقون من طين، أو هى مخلوقة من الفضة والذهب، كما أنها شديدة الرقة حتى إن تثنيها يثقلها ويؤلمها، والحلى التى فى يديها وحول رقبتها وفى قدميها تؤلمها أيضًا لرقتها ونضارة بشرتها، ولحسنها الشديد فإن مُرضعتها هى الشمس؛ ولذا بدت مشرقة مثلها، وبدا الحسن الذى على وجنتيها شبيهًا ببريق الكواكب المشرقة.

وهكذا يسترسل الشاعر فى وصف محبوبته مستحضرًا مفردات الكمال، وكأنه يتحدث عن امرأة هى مثال الجمال والحسن، ولم لا وهو يراها من خلال حبه إياها أجمل البشر، بل هى غير البشر فى الحسن والفتنة كأنها هبطت إلى الأرض من عالم المثل الذى تحدث عنه أفلاطون.

والإشارة الوحيدة فى هذه الأبيات التى تربط ولادة بالواقع هى قول الشاعر عنها "ربيب ملك"، فهى ابنة آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس، ألا وهو الخليفة المستكفى، ولا شك أن هذه النشأة هيأت لها الحياة الرغدة، على أن الشاعر لم يقل شيئًا حول وصف ولادة وربطها بالواقع سوى هذه العبارة، ثم انطلق بخياله إلى عالم المثل ليصور لنا جمالها المثالى.

[7]

وفى المقطع التالى يستمر ابن زيدون فى وصف ولادة وصفًا مثاليًّا، ويمزجه بالحديث عن مشاعر حبه نحوها، وخلال ذلك يستحضر ذكر النعيم الذى حام حولهما فى الماضى.

فهو فى المقطع التالى يستمر فى وصف جمالها، ولكنه يعكس أثر هذا الجمال على نفسه، وإحساسه بالمرارة الشديدة لفقده هذه المحبوبة التى احتوت كل هذا الجمال المثالى، يقول:

يَا رَوْضَةً طَالَمَا أجْنَتْ لَوَاحِظَنَا   وردًا جَلاَهُ الصِّبا غَضًّا وَنَسْرِينَا (*)

(*) روضة: حديقة، والجمع رياض، أجنت: جعلتها تجنى وتقطف، النسرين: الورد الأبيض.

وَيَا حَيَاةً تَمَلَّيْنَا بِزَهْرَتِهَا مُنًى ضُرُوبًا وَلَذَّاتٍ أَفانِينَا (٦)

وَيَا نَعِيمًا خَطَرْنَا مِنْ غَضَارَتِهِ فى وَشْيِ نُعْمى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا (٧)

لَسْنَا نُسَمِّيكَ إجْلاَلاً وَتَكْرِمَةً وَقَدْرُكَ المُعْتَلِى عَنْ ذَاكَ يُغْنِينَا (٨)

إذَا انْفَرَدْتَ وَمَاشُورِكْتَ فى صِفَةٍ فَحَسْبُنَا الْوَصْفُ إيضَاحًا وَتَبْيِينَا (٩)

فهذه المحبوبة هى روضة طالما استمتع الشاعر بالنظر إلى محاسن الجمال بها، وهى حياة مبهجة استمتع بالعيش معها ، وهى أيضًا نعيم نال من بهجته.

إنها بهذه الأوصاف مثال للجمال – كما قلنا من قبل – استمتع الشاعر به حينًا من الزمان ثم أُبعد عنه، فكأنه كان فى جنّة الفردوس ثم طرد منها، وأصبح ملقى فى الأرض وحيدًا غريبًا يبكى على أيامه السعيدة فى ذلك الفردوس المفقود.

[8]

المزج مرة أخرى بين الماضى والحاضر

ويبدأ ابن زيدون مقطعه التالى مناجيًا جنة الخلد – أى ولادة – فبعد أو وصفها فى المقطع السابق بأوصاف الجنة، لم يبق إلا أن يناديها باسمها فهى جنة الخلد.

---

(٦) تملينا: تمتعنا ونعمنا، ضروبًا: أنواعًا، أفانين: ألوان.
(٧) خطرنا: مسَّنا شىء، غضارته: نضرته، فى وَشْى: فى نعمى كالثوب الصافى ذى الوشى أى النقش، سحبنا: جررنا، خيلاء وزهوًا.
(٨) المعتلى: العالى رفعة.
(٩) حسبنا: يكفينا.

وفى ذلك المقطع يعود الشاعر مرة أخرى ليمزج بين الماضى والحاضر، تلك النغمة التى بدأ بها قصيدته، والتى تلوح فى أكثر أبيات هذه القصيدة، يقول الشاعر:

يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أَبْدِلْنَا بِسِدْرَتِهَا وَالْكَوْثَرِ الْعَذْبِ زَقُّومًا وَغِسْلِينَا (٦)

كَأَنَّنَا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثَنَا وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَاشِينَا (٧)

سِرَّانِ فى خَاطِرِ الظَّلْمَاءِ يَكْتُمُنا حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا (٨)

لاَ غَرْوَ فى أَنْ ذَكَرْنَا الحُزْنَ حِينَ نَهَتْ عَنْهُ النُّهى وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا (٩)

إِنَّا قَرَأْنَا الأسى يَوْمَ النَّوَى سُوَرًا مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا (١٠)

ومزج الشاعر بين الماضى السعيد والحاضر المؤلم فى هذا المقطع يبدو أشدّ مرارة مما كان عليه الأمر فى أول مقطع فى هذه القصيدة. وقد ركز الشاعر هنا على تصوير المرارة التى يشعر بها بعد طرده من جنة الخلد، واكتفى بذكر إشارات سريعة من المتع التى نعم بها حين كان فى تلك الجنة.

ومن هنا فإن ذلك المزج – فى هذا المقطع – بين الماضى والحاضر، تغلب فيه الماضى على الحاضر؛ لشدة المرارة التى يشعر بها الشاعر بعد مفارقته هذه الجنة، فبدا الحاضر مؤلمًا يكاد يطغى على الذكريات الجميلة التى كانت للشاعر فى الماضى.

ولم يبق للشاعر إذن فى حاضره إلا أن يتعزّى بالصبر، عساه أن يتحمل قسوة الفراق وحدّته.

[9]

---

(٦) السدرة: شجرة نبق عن يمين العرش، الزقوم: طعام أهل النار، الغسلين: شراب أهل النار.

(٧) السعد: الحظ الحسن، غض: أنامه عنا فلم يثِر بنا، الواشى: الحاقد الذى يمشى بين المحبين بالسوء.

(٨) سرّان: سر المحبة، وسر عدم الإفصاح، لسان الصبح: ضحوة النهار.

(٩) لا غرو: لا شك، النهى: العقول.

(١٠) الأسى: الحزن، النوى: الفراق، سُورًا: كما سور القرآن تتلى، أخذنا الصبر تلقينا: الصبر قد طبع فينا وثبت.

تصوير حال الشاعر فى الحاضر وتأكيده على أنه لا يسلو محبوبته أبدًا

ولهذه المرارات التى يشعر بها الشاعر بعد طرده من جنة ولادة، فإن الذكريات الجميلة تكاد تختفى وتحلّ مكانها المرارات؛ ولذا يعود الحاضر المؤلم جاسمًا على قلب الشاعر، يقول:

أَمَّا هَوَاكِ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ شُرْبًا وَإِنْ كَانَ يُرْوِينَا فَيُظْمِينَا (١)

لَمْ نَجْفُ أُفْقَ جَمَالٍ أَنْتِ كَوْكَبُهُ سَالِينَ عَنْهُ وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِينَا (٢)

وَلاَ اخْتِيَارًا تَجَنَّبْنَاهُ عَنْ كَثَبٍ لكنِ عَدَتْنَا – عَلَى كُرْهٍ – عَوَادِينَا (٣)

نَأسى عَليكِ إذَا حُثَّتْ مُشَعْشَعَةً فِينَا الشَّمُولُ وَغَنَّانَا مُغَنِّينَا (٤)

لا أَكْؤُسُ الرَّاحِ تُبْدِى مِنْ شَمائِلِنَا سِيمَا ارْتِيَاحٍ وَلاَ الأَوْتَارُ تُلْهِينَا (٥)

هذا هو حال الشاعر فى حاضره يتذكر ولادة فى كل حين، ويراها مثال الجمال والفتنة، فهى على حد قوله "أفق جمال".

ولا شىء فى هذه الحياة يمكنه أن ينسيه إياها، أو يريحه من الآلام التى يشعر بها بعد هجرها إياه كشربه الخمر أو سماعه غناء المغنين، فكل وسائل اللهو لا تجدى معه فى تخفيف الآلام التى يعانيها بعد هجرها إياه، كما أنه لا يمكنه أن ينساها بأى حال من الأحوال.

[10]

آمال الشاعر فى المستقبل

---

(١) هواك: حبك، يروينا فيظمينا: كلما شربنا منه ازداد نهمنا له، فلم نزل بين شرب وعطش.

(٢) سالين عنه: ناسين، أو تاركين مودّته، قالين: تاركين ذلك هجرانًا.

(٣) كثب: قرب، عدتنا: أتت علينا الأيام، عوادينا: الفواجع والدواهى، والمعنى: لم نتجنبه عن كثب أى قرب اختيارًا، ولكن صرفتنا على كره منا شواغلنا.

(٤) نأسى: نحزن، حُثّت: أخذت عن آخرها، الشمول: الخمر، مشعشعة: ممزوجة، والمعنى: أى نحزن لغيابك عن مجلسنا إذا حثت الشمول الممزوجة.

(٥) الراح: الخمر، تبدى: تظهر، شمائلنا: أخلاقنا.

هذا هو حاضره المؤلم، وذلك هو واقعه المرير؛ ولذا لم يبق له إلا أن يتعلق بالأمل فى المستقبل ذلك الأمل الذى يعنى رضاها عنه، وعودة الوصال بينهما من جديد، وهذا ما يعبر عنه الشاعر فى المقطع التالى والأخير:

دُومِي عَلَى الْعَهْدِ —مَا دُمْنَا — فَالحُرُّ مَنْ دَانَ إِنْصَافًا كَمَا دِينَا (١)
مُحَافِظَةً

فَمَا اسْتَعَضْنَا خَلِيلا مِنْكِ يَحْبسُنَا وَلاَ اسْتَفَدْنَا حَبِيبًا عَنْكِ يَثْنِينا

وَلَوْ صَبَا نَحْوَنا مِنْ عُلْوِ مَطْلَعِهِ بَدْرُ الدُّجى لَمْ يَكُنْ حَاشَاكِ يُصْبِينَا (٢)

أَبْكِى وَفاءً —وَإِنْ لَمْ تَبْذُلِى صِلَةً — فَالطَّيْفُ يُقْنِعُنَا وَالذِّكْرُ يَكْفِينَا

وَفى الجَوَابِ مَتَاعٌ إِنْ شَفَعْتِ بِهِ بِبِيضَ الأيادى الَّتِي مَا زِلْتِ تُولِينَا (٣)

عَلَيْكِ مِنَّا سَلاَمُ الله مَا بَقِيَتْ صَبَابَةٌ بكِ نُخْفِيهَا فَتَخْفِينَا (٤)

ها هو الشاعر يستعطف محبوبته فى أن تعود لعهد الوصال الذى كان، ويأمل أن تحافظ على حبل الود الذى كان بينهما كما يحافظ عليه هو، ويؤكد لها أن بدر الدجى لو تمثّل له امرأة ما عشقه كما يعشقها، فهى من دون النساء حبه وغرامه، ولن يستبدل بها أحدًا، ويأمل أن تكافئه على ذلك بعودة الوصال بينهما من جديد.

ويدرك الشاعر بعد أن عرض تجربته فى المقاطع السابقة أن عودة ذلك الوصال يبدو احتمالاً ضعيفًا بل هو أقرب للمستحيل، ومع ذلك يتمسَّك به الشاعر، وفى الوقت نفسه يحاول أن يهيئ نفسه لاحتمال عدم تحققه؛ ولهذا يقول لها: إن طيفها وحديثه إليه يكفيه إن إصرت على تلك القطيعة معه، يقول فى ذلك:

أبكى وفاء— وإن لم تبذلى صلة — فالطيف يقنعنا والذكر يكفينا

ويختم الشاعر قصيدته بتوجيهه السلام إلى محبوبته، وهو سلام يرجو أن يتردّد صداه فى الدنيا ما دام عشقه لها فى قلبه مستمرًّا، ويقول

---

(١) المعنى: دومى محافظة على العهد ما دمنا محافظين فالحر المنصف يجزى كما جوزى.
(٢) صبا: مال، يصبينا: يأخذنا فننساك.
(٣) متاع: سرور، شفعت به: قرنت به، بيض الأيادى: كناية عن الكرم، تولينا: تعطينا.
(٤) صبابة: محبة، نخفيها: نسترها، فتخفينا: تظهرنا وتفضحنا.

إنه مهما حاول كتمان ذلك العشق فإنه يظهر عليه ويفضحه؛ لعدم قدرته على كتمانه إياه.

وهكذا يحاول الشاعر أن يتماسك فى ذلك المقطع الأخير من القصيدة، إما بالأمل فى عودة وصال محبوبته له – وهو أمل يبدو تحققه ضعيفًا جدًّا – أو باستحضار طيفها ليناجيه فى كل وقت وحين، ومن هنا فإنه يحاول أن يشعر نفسه بقدر من الهدوء.

ولكنه – فى رأيى – هدوء لا استقرار له؛ لأن الماضى قد يحاصره بالذكريات من جديد ويتصارع مع الحاضر؛ فيكون الشاعر ضحية ذلك الصراع لعدم قدرته على التعايش الآمن فى ذلك الواقع المرير.

ومن هنا فلا تعنى نهاية هذه القصيدة خلود الشاعر إلى سلام حقيقى، بل هو سلام مؤقت؛ لا شك أن الشاعر سوف يشعر بالمرارة من جديد حين يثقل عليه عبء الحاضر، ويقارنه بالماضى الجميل، ولا يبقى عنده إلا الأمل بالمستقبل الذى تعود فيه علاقته بولادة إلى سابق عهده بها.

وهكذا يظل الشاعر فى هذه القصيدة متأرجحًا بين أبعاد الزمان المختلفة، ونرى أنه لا فكاك له من الخلاص منه.